٣٣ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل العاشر — « الخرافات »

لا تكاد القرية المصرية تخلو من ضريح ولي يزوره الكثيرون ولا سيما النساء في يوم خاص من الأسبوع. ويحمل بعض النساء إلى هنالك خبزاً للعابرين الفقراء وغيرهم. ويضع بعضهم أيضاً قطعاً نقدية صغيرة فوق القبر تقدمة للشيخ أو صدقة لأجله. وقد اعتاد الفلاحون كذلك أن ينذروا لأوليائهم ذبائح. مثال ذلك أن ينذر الرجل للشيخ فلان (المتوفى) ماعزاً أو ضاناً إذا أبل من مرض أو أنجب ولداً أو بلغ مراماً، فيضحي بالذبيحة عند قبر الشيخ إذا قضى حاجته حالته، ويولم بلحم النذر للفقراء. وثواب ذلك يبقى للولي. وكثيراً ما ينذر الجداء الصغيرة لتذبح في المستقبل فيشرم أذنها اليمنى أو يعلمها بعلامة ما. وليس من النادر أن ينذر الفلاح نذراً لا يبتغي منه شيئاً غير البركة. وقد ينذر أحياناً عجلاً يذبحه حين يكبر ويسمن، فيترك العجل طليقاً يرعى برضاء الجيران في كل مكان حتى حقول القمح. ثم يذبح العجل ويؤدب بلحمه مأدبة عامة. وكثيراً ما ذُبحت ثيران كبيرة بهذه الطريقة

يكرم كل ولي مشهور تقريباً بالاحتفال بمولده فيزور الناس قبره في ذلك اليوم تبركاً، ويستأجرون الفقهاء لتلاوة القرآن على روح الولي. ويقوم الدراويش بالذكر. ويعلق من يسكن بجوار الضريح مصابيح أمام أبوابهم، ويقضون نصف ليلهم في التدخين واحتساء القهوة والاستماع إلى رواة القصص في المقاهي أو تلاوة القرآن والأذكار. وأمام بابي الآن عدة مصابيح علقت احتفالاً بمولد شيخ يجاور ضريحه المنزل الذي أسكنه. وكثيراً ما يعلق المسيحيون المصريون كذلك المصابيح في مثل تلك الأحوال.

وتستمر هذه الأعياد بضعة أيام غالباً. وأشهر موالد القاهرة بعد المولد النبوي مولدا الحسين والسيدة زينب، وقد وصفتهما في فصل لاحق من الأعياد الدورية العامة في مصر. ولا يواصل أكثر المصريين زيارة قبور الأولياء المشهورين للتبرك فحسب، وإنما يواصلونها خشية نزول المصائب بهم إذا قصروا في ذلك. وهكذا يقاسي الآن أحد معارفي مرضاً يعزوه إلى إهماله حضور مولد السيد احمد البدوي في العامين الأخيرين، وقد جاء أوان الاحتفال بأحد موالده. ويكاد ضريح هذا الولي يجتذب زائرين من العاصمة وأنحاء مصر السفلى أثناء الموالد السنوية الكبيرة بقدر ما تجتذب مكة حجاجاً من أنحاء العالم. ويقام للسيد البدوي ثلاثة موالد سنوية إكراماً له. ويقام أحدها حوالي اليوم العاشر من شهر طوبه (١٧ أو ١٨ يناير) والثاني في الاعتدال الربيعي[1] أو نحو ذلك، والثالث وهو المولد الكبير يقام بعد الانقلاب الصيفي بشهر تقريباً (أو حوالي منتصف شهر أبيب) عند ما يزيد ارتفاع النيل ولم تقطع السدود بعد. ويستمر كل مولد ثمانية أيام، فيبدأ يوم جمعة وينتهي بعد ظهر الجمعة التالية. وتقام في كل ليلة ألعاب نارية. ويحتفل بمولد السيد ابراهيم الدسوقي بعد كل من الموالد السابقة بأسبوع في دسوق على الضفة الشرقية من فرع النيل الغربي. وكان السيد ابراهيم ولياً ذائع الصيت يلي السيد البدوي في الشهرة.

وتعتبر موالد السيد البدوي والسيد ابراهيم الدسوقي أسواقاً عامة فضلاً عن كونها أعياداً دينية، ويقيم أكثر زائري مولد السيد ابراهيم في مساكنهم. ويعرض بعض دراويش السعدية من أهل رشيد ألعابهم بالثعابين، ويحمل بعض هؤلاء ثعابين شد فمها بحلقة فضية وقاية من لدغها؛ ويأكل آخرون بعض هذه الثعابين حية. ولا يزيد الاحتفال الديني في الموالد جميعاً على إقامة الذكر[2] وتلاوة القرآن. وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون — كما كان يفعل اليهود — بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية التركيبة أو التابوت أحياناً بغطاء جديد؛ وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود[3]

يكثر الدراويش في مصر كثرة عظيمة، ويحترم المصريون

(١) ويسمى (شمس الكبيرة)

(٢) سأصف الذكر وصفاً تاماً في فصل آخر عن الأعياد الدورية العامة

(٣) انظر انجيل متى ٦ / ٢٩

— وخاصة الطبقات السفلى — هؤلاء الذين يعكفون على الرياضة الدينية ويعيشون على الصدقة احتراماً كبيراً ؛ ويستخدم بعض الدراويش الحيل المختلفة للاشتهار بقداسة فائقة وقدرة القيام بالكرامات ، ويعتبر الكثير منهم أولياء

ويحمل من ينحدر مباشرة من ذرية أبي بكر أول الخلفاء لقب « الشيخ البكرى » ، ويعتبر ممثل ذلك الخليفة ، ويسيطر على جميع طوائف الدراويش بمصر ؛ ويعتبر « الشيخ البكرى » الحالى ، وهو أيضاً من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم نقيب الأشراف . ولعمر أيضاً ممثل هو « شيخ العنانية » أو « أولاد عنان» ، وهم طائفة من الدراويش سموا هكذا باسم «ابن عنان» أحد شيوخهم المشهورين . وليس لعثمان ممثل ، إذ أنه لم يترك خلفاً . ويسمى خليفة على « شيخ السادات » ، وهو لقب دون لقب « نقيب الأشراف » . ويدعى كل شيخ من هؤلاء الثلاثة « صاحب سجادة » سلفه العظيم . وكذلك « شيخ الطائفة » من طوائف الدراويش يسمى «صاحب سجادة» مؤسس الطائفة . وتعتبر السجادة العرش الروحى . وفى مصر أربع سجاجيد كبيرة وهى لتلك الطوائف الكبيرة التى سأذكرها الآن

أشهر طوائف الدراويش فى مصر ما يأتى :

أولاً: طائفة (الرفاعية) أسسها السيد أحمد الرفاعى الكبير . وأعلام الرفاعية وعمائمهم سوداء ، وقد تكون العمائم من الصوف الخالص الزرقة أو الموصلى القاتم الخضرة . ويشتهر دراويش الرفاعية بأعمالهم العجيبة [1] . ويدعى (العلوانية) أو (أولاد علوان) وهم فرقة من الرفاعية أنهم يفرزون المسامير الحديدية فى أعينهم وأجسامهم دون أن يقاسوا ألماً . والظاهر أنهم يفعلون ذلك بطريقة تخدع من يصدق مثل هذه الأعمال . وهم يحطمون أيضاً على صدورهم كتلاً من الحجارة ويبتلعون الحجر والزجاج . ويقال إنهم يخترقون أجسامهم بالسيوف وخديهم بالمسلات دون ألم أو جرح . غير أنه قلما تشاهد هذه الألعاب الآن . وكانت العادة كما أخبرت أن يقوم الدرويش بتجويف قطعة من جذع النخل ويحشوها بخرق غمست فى الزيت والقطران ويشعلها . ثم يحمل هذا الجسم الملتهب تحت ذراعه فى موكب دينى وليس على جسده غير سروال فينبعث اللهب على صدره وظهره ورأسه ولا يبدى ألماً .

(١) ويبدو دراويش مصر أقل مهارة من الهنود فى الألعاب الشعوذة

و (السعدية) فرقة أخرى من الرفاعية أشهر من الأولى أسسها الشيخ سعد الدين الجباوى . وأعلامها وعمائم أعضائها خضراء وقد تكون العمائم قاتمة . ويوجد فى هذه الطائفة دراويش يسكنون الثعابين السامة والعقارب بلا خوف ، ويلتهمون بعضها . إلا أنهم ينزعون أنياب الثعابين حتى يأمنوا شرها . ولا شك أنهم يعدمون العقارب سمها أيضاً . ويركب شيخ السعدية فى بعض المناسبات كوليد النبى (صلعم) حصاناً ويسير به على أجسام بعض دراويشه وغيرهم وهم راقدون على الأرض . ويقرر جميعهم أن وطء الحصان لم يؤذهم[1] ويسمى هذا الموكب (الدوسة) . ويعيش الكثير من دراويش الرفاعية والسعدية على إخراج الثعابين من البيوت . وسأتكلم عن براعة هؤلاء المشعوذين فى فصل آخر .

ثانياً : (القادرية) أسسها السيد عبد القادر الجيلانى النبيه الذكر . ويبارق القادرية وعمائمهم بيضاء . وأغلبهم صيادون فيحملون فى المواكب الدينية شباكا مختلفة الألوان يرفعونها على دعائم تميزاً لطائفتهم .

ثالثاً : (الأحمدية) وهم طائفة السيد أحمد البدوى . وهذه الطائفة كثيرة العدد ومحل الاحترام . ورايتهم وعمائمهم حمراء .

وتعتبر (البيومية) ومؤسسها السيد على البيومى ، و (الشعراوية) ومؤسسها الشيخ الشعراوى[2] و (الشناوية) ومؤسسها السيد على الشناوى فرقاً من الأحمدية . وتشترك الشناوية في اليوم الأخير من مولد شفيعهم الكبير السيد احمد البدوى فى طنطا بنصيب غريب ، إذ يجرون حماراً فى ذلك اليوم ويتركونه يدخل المسجد من تلقاء نفسه . فإذا دنا من الضريح حيث يحتشد الجماهير نتف كل من استطاع بعضاً من شعره كتعويذة حتى يصبح جلد الحيوان المسكين عارياً كراحة اليد . وهناك فرقة أحمدية أخرى تسمى (أولاد نوح) كلها شبان يلبسون (طراطير) تعلوها شرابة من قطع الجوخ المختلف الألوان . ويحملون سيوفاً خشبية وسياطاً من الحبال السميكة المجدولة المسماة (فرقلة) ويلبسون عدة عقود من الخرز .

رابعاً : (البراهمة) أو (البرهامية) وهم طائفة السيد إبراهيم الدسوقى الذى سبق الكلام عن مولده . وأعلامهم وعمائمهم

(١) سأصف هذا وغيره من أعمال الدراويش وصفا كاملا فى الفصول المتعلقة بالأعياد الدورية العامة

(٢) تنطق هكذا بدلا من الشعرانى

خضراء . وهناك فرق أخرى ينتمى بعضها إلى الطوائف السابقة ؛ ومن أشهرها (الحفناوية) و(العفيفية) و(الدمرداشية) و (النقشبندية) و (البكرية) و (الليثية)

والإلمام بكل عقائد الدراويش وقوانينهم وشعائرهم مستحيل ؛ إذ أن أكثرها مثل عقائد الماسونية لا تذاع على غير المطلعين على أسرارها . وقد وصف لى درويش أعرفه كيف أخذ (العهد) أى ميثاق التعريف بالسر وهو يكاد يكون واحداً عند الطوائف جميعها . استقبل شيخ الدمرداشية صاحبى هذا فتوضأ وجلس أمامه على الأرض . ثم ضم كل من الشيخ والمريد يده اليمنى إلى يد الآخر بالطريقة السابق وصفها عند عقد الزواج . وبهذه الحالة واليدان مغطاتان بكم الشيخ أخذ المريد العهد مردداً وراء الشيخ هذا الكلام التالى بادئاً بالتوبة : « أستغفر الله العظيم (ثلاث مرات) الذى لا إله إلا هو الحى القيوم . أتوب إليه وأسأل عفوه وغفرانه وإعتاقه من النار » ثم يسأله الشيخ هل يتوب إلى الله ؟ فيجيب المريد أنه يتوب إلى الله ويرجع إلى الله . وإنه نادم على ما ارتكب من المعاصى ويقرر أنه لا يعود إلى غيه . ثم يردد بعد الشيخ أنه يستخير الله العظيم والرسول الكريم . وإنه يولى عليه السيد عبد الرحيم الدمرداش الخلوتى الرفاعى النبوى محتذياً مثال شيخه ومرشده إلى الله تبارك اسمه وتعالى . وإنه لا يحيد عن تعاليم الطريقة ولا ينفصل عنها ، ويشهد الله على ذلك مقسماً بالله العظيم ثلاث مرات . ثم يقرأ الشيخ والمريد الفاتحة معاً . ويختم المريد الحفل بتقبيل يد الشيخ . وتقوم أعمال الدراويش الدينية على الذكر خاصة ، فيصيحون أو ينشدون واقفين فى حلقة مستديرة أو مستطيلة أو فى صفين متقابلين أو جالسين : « لا إله إلا الله » أو « الله الله الله » أو يرددون أدعية أخرى ، ويكررونها حتى تخور قواهم ، وهم أثناء ذلك يحركون الرأس أو الجسم جميعه أو الذراعين . ويستطيعون لدأبهم على ذلك أن يواصلوا هذه الحركة بلا انقطاع مدة تثير الدهشة . وكثيراً ما يصحبهم من وقت لآخر عازف أو أكثر على (الناى) أو على (الأرغول) وآخرون ينشدون القصائد الدينية . ويستخدم بعض الدراويش أثناء الذكر طبلاً صغيراً يسمى (بازا)[1] أو دفا . ويقوم البعض الآخر برقص غريب سأصفه مع أشكال مختلفة للذكر فى فصول قادمة

فضل طاهر نور

(١) أنظر وصف هذه الآلات فى فصل الموسيقى

المنصف

مجلة الشهرة الأدبية ورسالة التشريع

صدر عدد شهر جمادى الأولى ومن أهم موضوعاته :

كلمات لها عقائد — المرأة ونظام الطبقات — دلالة الموسيقى العربية فى الحكم على العرب — عبقرية محمد للعقاد — ما هى العقيدة فى نفس الانسان — دمعة وجل « قصيدة » — أحسن ما قرأنا فى الصحف العربية « تعليقات »

ذكرى الرافعى

وفى هذا العدد بمناسبة ذكرى وفاة الرافعي كاتب الأمة العربية ، نشرت « الأنصار » مقالا للأستاذ محمد سعيد العريان عن نفس الرافعى العربية المؤمنة . ومقالا رائعاً للراضى نفسه ، لم ينشر فى حياته ، وهو بعنوان « شيطان وشيطانة » ، وفيه يصور الرافعى بخياله وقلمه وإلهامه صورة « اختلاط الجنسين »

الاشتراك السنوي فى مصر والسودان والأقطار العربية ٢٠ قرشا والمعلم الالزامى والطالب ١٥ قرشا . والمكاتبات وطلب الأعداد بعنوان الأنصار ٢٤ شارع البستان — القاهرة

ملامح المجتمع العراقي

كتاب يمثل الدراسة فى مذاهبه الأدبية والقومية والاجتماعية

يطلب من المكاتب الشهيرة وثمن النسخة ١٥ قرشاً